



50

العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثاني عشر

ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

4. التذبذب (Ambivalence)

تكمن مأساة الهامشية في أن الفرد الهامشي يقع بين طرفي كماشة التذبذب المزدوج: فنحو الغرب، مصدر الثقافة التي يحاول أن يشارك فيها، تجده يشعر بالإعجاب والحسد، والحب والكره، ولا يستطيع مقاومة الانجذاب نحوه في نفس الوقت الذي يخافه فيه ويتوجس منه. إنه يرغب باكتساب أكثر ما يستطيع من الثقافة الغربية، وفي الوقت نفسه يريد إزالة أي نفوذ غربي من بلده بقدر الإمكان. ولا تختلف مشاعره تجاه بلده ومجتمعه في تذبذبها عن مثيلتها السابقة؛ فهو يحب بلده بغيرة وطنية، ولكنه يكره جبن شعبه؛ وهو فخور «بتراثه العربي» العظيم، ولكنه يشتكى عجز ثقافته التقليدية بحالتها التي وصلت إليه بها في أوساط الجماهير الجاهلة؛ وهو يستمتع بالبلاغة المعسولة التي تحملها اللغة العربية، ولكنه يعترف ويؤكد على عدم ملاءمتها لحمل المعاني الحديثة في مجالات التواصل والفكر والعلم والمعرفة الأكاديمية؛ وهو يتمسك بالقيم البدوية، ولكنه يتجنب أي اتصال شخصي بالبدوي «الأشعث الأغبر»؛ وهو يعلم أن القرويين يشكلون الركن الأساسي والعمود الفقري لاقتصاد بلاده، وربما يصدق أن يشكلوا عماد ثروته النسبية، ولكنه يمقت الفلاح «الرجعي الجاهل القذر»؛ وهو يدرك أن خلاص بلده يكمن في زيادة الإنتاجية بسبب ما تعلمه في الغرب عن قيمة العمل والكفاءة، ولكن حالته النخبوية الراسخة عميقا في النظام الهرمي لمجتمعه تبعده عن توسيح يديه بالعمل البدني ويبقى عمله لا يخرج عن مجال الإشراف على الآخرين أو الوظائف المكتبية.

من النموذج السابق لهامشية العربي المتغرب نجد أن تذبذبه يختلف بشكل كبير عن المفهوم الفرويدي الذي يقضي بأن حظر القيام بعمل ما إنما هو فعل مُدرك يقع في صلب

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

أداء الوعي. بينما تكون الرغبة في أداء عمل محظور من صلاحيات اللاوعي. فلا يعلم المرء عنها شيئاً¹ وبعبارة أخرى، يعتبر فرويد أن التذبذب هو الصراع بين الانجذاب في اللاوعي والنفور في الوعي.

إن التذبذب الذي يقع المتغرب العربي فريسة له إنما هو ذو طبيعة خاصة. ففي هذه الحالة، يكون الانجذاب والنفور ضمن مجال الوعي، فالعربي يدرك مشاعره سواء أكانت إيجابية أم سلبية دون أن تكون هنالك حاجة لإدراكه الصراع الذي يخلقه. ويميل العرب الذين يحللون هذه الظاهرة التي تصيبهم إلى إعطاء توصيف لفظي لهذا الصراع في بعض الحالات ويشتكون من الانقسام الداخلي الذي يحدثه في نفوسهم. أما الآخرون العاجزون عن تسليط الضوء على هذه المسألة فتظهر عليهم علائم الأذى الذي تتسبب به المواقف المتصارعة في تفكيرهم وأنماط سلوكهم.

ويزيد الطين بلة إذا تدخلت عوامل أخرى، فالتذبذب المقترن بالهامشية يؤدي، كما أشرنا في ما سبق، إلى مضاعفة التوترات النفسية. وهنالك صنف من التذبذب يصيب الثقافة التقليدية ومن يتبناها، وثمة صنف آخر يركز على الثقافة الجديدة ومن يحملها. ونجد عند الروائي السوري اللبناني حليم بركات صورة جلية لهذا التذبذب المضاعف في شخصية رمزي، بطل روايته (عودة الطائر إلى البحر)، والذي يرتبط بعلاقة حب/كره متذبذبة تجاه وطنه والولايات المتحدة.

ومن حسن الحظ أن نسبة قليلة فقط من الشعب العربي ترزح تحت عبء التوتر والإجهاد الناجم عن هذا التذبذب المضاعف؛ فغالبية العرب يعيشون في الأرياف البعيدة عن الهيجان الذي يميز الحياة في المدينة العربية، ولا يعلمون شيئاً عن محن الهامشية والتذبذب التي تكلمنا عنها. ومع ذلك لا يمكن لأبعد القرى وقبائل البدو الرعاة أن تنجو تماماً من تأثيراتها. ومع قدوم الطب الوقائي والرعاية الصحية، وهذا بذاته من نتائج التغريب،

(1) سيغموند فرويد: التوتيم والتابو؛ ص40.

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

تزايد عدد أطفال القرى الناجين من أمراض الطفولة التي كانت تقتلهم في السابق. وبلغ عددهم حدا يشار إليه في الغرب بمصطلح (الانفجار السكاني). وبما أن معظم القرويين لا يمكنهم إعالة أشخاص أكثر من العدد الذي كانوا يعيلونه خلال الأجيال السابقة. كان لزاما على الأطفال الفائضين الذين كادوا يبلغون أن يغادروا إلى المدينة ويتدبروا أمورهم هناك كيفما اتفق. واعتاد هؤلاء المهاجرون على العودة إلى قراهم من وقت لآخر. ينقلون إلى أهالي القرية أبناء عما يجري في المدينة ويتركون تأثيرا خفيفا على الجو العام للقرية يقودها نحو توجهات المدينة. وهذه العودة تضاف إلى الصحف والراديو والتلفزيون كعامل أساسي لبث التأثير الحضري. فانفتحت القرية في هذا العصر على عالم المدينة بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ.

وهكذا تتغلغل قيم المدينة في القرية. ومعها تدخل قيم النخبة المتغرية. وضمن حيثيات هذه العملية لا يمكن للقرية أن تظل عاجزة عن إدراك «الفصل» الثقافي الذي تمارسه النخبة الحضرية. ففي السابق كانت المسافة الاجتماعية الهائلة بين الفلاح والباشا عصية على التغيير. وكان الفلاح يكاد لا يقترب من الباشا إلا في مناسبات نادرة ليقبل يديه ويتفهم كافة الألفاظ اللطيفة والفاضية التي يلقيها على مسامعه «سيده العظيم». ويتعلم الفلاح من خلال اللغة العامية أن هؤلاء الذين يحتلون قمة الهرم الاجتماعي. وهو الذي يشكل قاعدة الهرم. يمثلون أجزاء ثابتة من المجتمع ذاته تشترك في الدين والنسب والقيم.

أما اليوم فإن الفلاح أو البدوي المغربي الذي يستمع إلى مؤتمر صحفي للملك فسيجده يتحدث بلغة لا يفهمها وليس قادرا حتى على أن يعلم بأنها اللغة الفرنسية. وهذا لوحده يكفي لإحداث تقليص كبير في العامل المشترك الذي يربط بين الفلاح والصحفيين المتغربين الذين يطرحون الأسئلة باللغة الفرنسية. كما إن إدراكه أن قاداته لا يتكلمون لغته بفصاحة يجعله يشعر بأنهم لا ينتمون إلى المجتمع الذي ينتمي هو إليه.

الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

وبينما يخلق هذا الوضع شعورا بالعزلة لدى النخبة، يؤدي إلى شعور بالنقمة لدى الجماهير. وفي مجتمع كالمجتمع العربي حيث تلعب الأسرة والقرابة دورا هاما، تكون النقمة على هيمنة الغريب ذات قوة خاصة، وتميل الجماهير التقليدية إلى الشعور بالنقمة الشديدة تجاه النخبة المتغربة، وهي النقمة الشديدة ذاتها التي طالما أحس بها العرب تجاه الغرباء الذين يسيطرون على أرضهم.

وتكون هذه النقمة قوية بشكل خاص عند الطبقة العاملة في المدينة. فهؤلاء العمال، وفق المفهوم الغربي، أدى بهم دخول الأساليب الغربية إلى أن يصبحوا مؤخرا فائضا عن حاجة قراهم، كما أدى عيشهم بالقرب من الطبقات الاجتماعية العليا إلى أن يشهدوا ظاهرة التغريب عن قرب بشكل غير متاح لأهالي الريف؛ ونتيجة لذلك يبدي هؤلاء العمال موقفا متذبذبا تجاه خصائص الثقافة الغربية وقيمها، وهو موقف لا تتوفر فرصة لنموه عند الريفيين. إن أهالي الريف وفقراء المدن دائما ما كانوا يشعرون بنقمة تقليدية تجاه مظاهر الثروة والتبذير التي يبديها الأغنياء الخاملون، وتفاقت هذه النقمة عندما أصبحت تلك المظاهر تحتوي عددا متزايدا من خصائص الثقافة الغربية التي يرفضها الرأي العام التقليدي لدى الفقراء، وفي الوقت ذاته، كان شعور بالافتتان ينمو لديهم نحو مباحث الثقافة الغربية التي كانت بعيدة عن متناول أيديهم ومائلة دائمة أمام أبصارهم. وبمعرفة هذا الأمر يجب على المراقب أن ينظر إلى مجريات الأمور وفق هذا المنظور كي يفهم استعداد الطبقة العاملة في المدينة للتحويل إلى حشود غاضبة تهيم في الشوارع؛ تسرق وتحرق، وتهاجم كل من يبدو غريبا عليها، وتخسر عددا من الجرحى والقتلى بيد الشرطة، ثم تخمد ثورتها بعد ساعات لتعود إلى خمودها الذي تعكر صفوه نوبات من غضب غير مؤد.